تقويم العرب في الجاهلية

لحضرة العالم الفاضل النسيب السيد محمد افندي توفيق البكري

هٰذا مقام مهمٌّ كثر فيهِ الكلام في هذه الايام ولا سيّما بعد ان ظهر "اصلاح التقويم" الذي ألّفهُ دولتلو الغازي مختار باشا والمّ فيهِ بشيءٍ منهُ . وكان قبل ذلك قد ألّف الفاضل محمود باشا الفلكي رسالةً في هذا الموضوع ابان فيها عن علمٍ غزيرٍ وفكرٍ وضّاحٍ وكلامٍ نابغٍ وذهب الى ان العرب لم تستعمل البتة سوى السنين القمرية المحضة متبعًا في ذلك ما رآهُ المسيو سيلفستر دوساسي لانهُ كثيرًا ما ينقل عنهُ ويعزو اليهِ ويستشهد بهِ في كتاباتهِ ولكنا بحثنا في اقوال هٰذا المؤلف الفرنسوي ونقولهِ وسبرناها ووقفنا على مغالطهِ كما سنبينهُ فيما يأتي . فرأينا ان نكتب هذه الرسالة ذاهبين فيها خلاف ما ذهب اليهِ محمود باشا اي ان العرب كانت تحسب اوقاتها بالسنة القمرية الشمسية سالكين طريق الايضاح والتقرير في غير نقضٍ او نقدٍ

كان للعرب في الاحقاب الاولى شهورٌ قمريّة روى الرواة اسماءها ونقلها المؤرخون على خلاف فيها قال المسعودي في المروج هي ناتق وثقيل وطليق وناجر واسلح او اسلخ وسماج او سماخ وامخ واحلك وكسع وزاهر وبرط او مرط وحرف ونعيس ثم نعس او مريس . وعلى حواشي المروج كتابة نصها اختلف الناس في ذلك اختلافًا كثيرًا قال البيروني وتوجد للشهور اسامٍ قد كان اوائلهم يدعونها بها وهي هذه المؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنين وربى والاصم وعادل وناتق وواغل وهواع وبرك وقد توجد هذه الاسماء مخالفة لما اوردنا ومختلفة الترتيب كما نظمها احد الشعراء في شعرهِ

بمؤتمر وناجرٍ بدأنا وبالخوان يتبعها الصوانُ
وبالربى وبائدة تليهِ يعود اصم صم بهِ السنانُ
وواغله وناطله جميعًا وعادله فهم غرر حسانُ
ورنة بعدها برك فتمت شهور الحول يعقدها البنانُ

ثم انهُ قبل الاسلام بمائتي سنة في زمن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي احد اجدادهِ صلى الله عليهِ وسلم وضعت لها الاسماء المعروفة بين ظهرانينا الآن وهي المحرم وصفر وربيع الاول وربيع الثاني وجمادى الاولى وجمادى الثانية ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة ومنها الاربعة الحرم وهي رجب وذو القعدة وذو

الحجة والمحرم يحرمون فيها القتال والقراع فيفيئون الى الدعة والاناة والسلم والامان فتروج المتاجر وتقوم الاسواق وتأمن السابلة

ولا جرم ان اسماء هذه الشهور كانت تدل بحسب وضعها على صفات في مسمياتها فسمي المحرم لتحريم الحرب والغارات فيه ورجب لخوفهم اياهُ يقال رجبت الشيء اذا خفته وانشد (فلا تهبها ولا ترجبها) وذو القعدة لقعودهم فيه عن الحرب وذو الحجة لانهم كانوا يحجون فيه الى البيت العتيق وكذلك صفر سمي بالاسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية وكانوا يمتارون فيها ومن تخلف عنها تلف وقال نابغة ذبيان

اني نهيت بني ذبيان عن اقتي وعن تربعهم في كل اصفارِ

وقيل انما سُمّي الصفر لان المدن كانت تخلو فيه من اهلها بخروجهم الى الحرب وهو مأخوذ من قولهم اصفرت الدار منهم اذا خلت وشعبان لتشعبهم الى مياههم وطلب الغارات وشوال لان الابل كان تشول فيه ذلك الوقت باذنابها تشاءمت به العرب ولذلك كرهت التزويج فيهِ وقيل فيها غير ذلك. اما الربيع فيدل على الخضرة والحيا ويلزم ان يكون الربيعان وضعا في الاصل لاوقات الزرع حيث تزين الارض وتأخذ زخرفها وينهل بجرءاتها القطر. وبعدها جمادى وفي مدلولها وهم الكثير من علمائنا وعلماء الافرنج اذ نظروا الى ما يدلُّ عليهِ بعض اشتقاقات هذه الكلمة من البرد القارس وان الجمد هو الثلج ونحو ذلك فاضطربوا في المقام حتّى قال البيروني في كتاب الآثار وابو معشر في كتاب الالوف وغيرهم ان الربيعين شهرا خريف لوقوعها قبل الجماديين وتحلوا له بان العرب كانت تسمّي الخريف ربيعاً الى غير ذلك. اقول ان كلمة الربيع تحتمل هذا لذاتها ولكن يأباهُ موقع شهر رمضان وذي الحجة لان هذا الاخير يجب ان يكون في ازمان الثمار والكلاٍ كما سنبينه. ثم ان القريس وشدة البرد ونزول الثلج ونحو ذلك حالات قلّ ما تعرف في جزيرة العرب او يذكر لها شأن فلذا ارى لجمادى معنًى آخر يوافق موقعها من السنة ربما كان اقرب من الصحة وذلك ان الجماد في اللغة الارض والسنة لم يصبها مطر والناقة التي لا لبن لها ويقال للبخيل الممسك جمادِ كقطام اي هو جماد الكف ويقال ظلت العين جمادى جامدة لا تدمع فيمكن ان يقال اذن بلا تريث ان الجماديين أُطلقا في الاصل على الاوقات التي تجدب فيها الارض وتجف وتزوي الغصون وينشع النبات وعلى هذا يتسق النظام. ثم ان معنى رمضان شديد الحر ويؤخذ منهُ انهُ اكثر الشهور وقدات مصائف وحمارات قيظ وجمرات هجير ويصح هذا المعنى

ايضًا بما قلناهُ في الجاديين

فيرى البصير ممّا اوضحنا انهُ يجب ان يكون بين هذه الشهور وبين الفصول نسب قويّة ووشائج متينة يعلم منها انها لم توضع لسنة قمريّة محضة لانهُ لما كانت السنة القمريّة اقل من السنة الشمسيّة ١١ يومًا فلا بد ان تتقدّم عليها اكثر من شهر في كل ٣ سنين واكثر من فصل في ٩ سنين فلو كانت العرب اثبتت في حسابها تقويمًا قمريًا محضًا كانت النسب التي بين اسماء هذه الشهور وبين الفصول ذهبت بالكليّة من اوائل الامر بحيث لا يبقى لهم في استعمالها من سبيل . فيلزم ان تكون هذه الاشهر وضعت لسنة شمسيّة قمريّة وذلك ما اراهُ واروبه عن العلّامة ابي معشر قال «كانت العرب قديمًا تستعمل سني القمر برؤية الاهلة وكانوا يحجون في العاشر من ذي الحجة وكان لا يقع هذا الوقت في فصل واحد من فصول السنة بل يختلف فمرةً يقع في زمن الصيف ومرةً في زمن الشتاء ومرةً في الفصلين الباقيين لما يقع بين سني الشمس والقمر من التفاضل فارادوا ان يكون وقت حجهم موافقًا لاوقات تجارتهم حيث يكون الهواء معتدلاً في الحر والبرد مع توريق الاشجار ونبات الكلا لتسهل عليهم المسافرة الى مكة ويتجروا بها مع قضاء مناسكهم فتعلموا عمل الكبيسة من اليهود وسموهُ النسيء اي التأخير»

وقد ايد هذا الرأي اكابر العلماء والمؤلفين كالمسعودي والبيروني والمقريزي وحاجي خليفة صاحب كشف الظنون وبالجملة فكل من نثق بهِ من الشيوخ والرواة قال هذا القول ولا حاجة لايراد عباراتهم لان هذا مسلم عند من خالفنا

وعندي ان اتخاذ النسيء وتسمية الشهور باسمائها الجديدة مع تلك النسبة ممّا يدل على انهما احتيرا في زمن واحد ويؤيد هذا عبارات التاريخ اذ ان المقريزي ومحمد الجركسي يقولان بان النسيء بدئ بهِ قبل الاسلام بنحو قرنين وهو الزمن الذي يقول المسعوديّ وغيرهُ ان فيهِ اتخذت تلك الاسماء للشهور

هذا وقد اختلف المؤلفون في كيفيّة الكبس ومقداره فقال ابو الفدا والمسعودي كانت العرب تكبس في كل ثلاث سنين شهرًا وتسميهِ النسيء وقال حاجي خليفة انها كانت تكبس كل ١٩ سنة بسبعة اشهر وذهب البيروني والمقريزي ومحمد الجركسي الى انهم كانوا يكبسون كل ٢٤ سنة بتسعة اشهر وسنتين فما بعد الصواب من هذه الاقوال

وليعلم انهُ مهما كان مقدار هذا الكبس فان ذلك كان يضاف في آخر السنين كما هي طريقة اليهود لا في اثنائها كما كان يفعلهُ الرومانيون قبل يوليوس قيصر

وكانت اليهود تلقب بالناسئ رئيس طائفة سانهيدران وهي كما في قاموس كاستيل عصابة كان من وظائفها تعيين السنين الكبيسة وضبط التواريخ

وقد اختار العرب لهذا الامر رجلاً من كنانة وكان يدعى القلمس واولادهُ القائمون بهذا الشأن تدعى القلامسة وهم النسأة وآخر من تولّى ذلك من اولادهِ ابو ثمامة جنادة بن عوف بن اميّة بن قلع بن عباد بن قلع بن حذيفة وكانوا كلهم نسأة واول من فعل ذلك منهم كان حذيفة وهو ابن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن مالك ابن كنانة وقال شاعرهم يصف ابا ثمامة

فذا فُقَيم كان يدعى القَلَمَّسا وكانَ للدين لهم مؤسِّسا
مستمعًا في قولهِ مرأَّسا

وقال آخر

مشهرٌ من سابقي كنانَهْ معظَّمٌ مشرفٌ مكانَهْ
مضى على ذلكمُ زمانَهْ

وقال غيرهُ

ما بين دور الشمس والهلالِ يجمعهُ جمعًا لدى الاجالِ
حتى يتم الشهر بالكمالِ

ولا ريب في ان هذه القطعة الثالثة وهي من كلام جاهلي لا تبقي في النفس حاجة من ان العرب كانت تستعمل الكبس . ويؤخذ من عبارات البيروني والمسعودي والمقريزي انهم لا يعنون بالنسيء الّا الكبس اما ابن اسحق وصاحب القاموس والجوهري والبيضاوي وجلال الدين فانهم سكتوا عن هذا ولم يذكروا النسيء الّا فيما ينصرف الى تأخير حرمة شهر لآخر - وذهب الجوهري الى ان العرب يصعب عليها تحريم ثلاثة اشهر متواليات لما اتفق من موالاة الغارات ومداومة الحروب وما في ذلك من معاشهم فكانت النسأة تنقل حرمة المحرم الى صفر وذلك بعد اتمام مناسك الحج عند منصرفهم من منى

وزعم الفيروزبادي ان من النسيء نقل حرمة رجب الى شعبان اقول هذا كلام لا دليل عليهِ ولا يصح ان يكون لانهُ لا معنى لنقل حرمة رجب قبل ابانهِ بستة اشهر وعبارة الجوهري ايضًا تناقضهُ وكذلك عبارة ابن اسحق في السيرة حيث يقول (كانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت الى الناسيء فحرم الاشهر الحرم المحرم ورجبًا وذا القعدة وذا الحجة فاذا اراد ان يحل منها شهرًا احل المحرم فاحلوهُ وحرم مكانهُ صفرًا

ليواطئوا عدة الاشهر الاربعة الحرم) وبالجملة فلا دخل لهذا الامر فيما نحن فيه

وقال محمد الجركسي وقوله الصواب ان النسيء يطلق على معنيين احدهما الكبس والآخر تأخير حرمة المحرم الى صفر

وقال المسيو دبساسي في هذا المقام كلامًا نحن نحاسبه عليه ولكنا نذكر قبل ذلك الآية الشريفة والخطبة النبوية ونأخذ من ذلك ما يؤيد قولنا قال الله تعالى في سورة التوبة

"انّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشرَ شهرًا في كتاب الله يومَ خلق السموات والارض منها اربعةٌ حُرُمٌ ذلك الدينُ القيّمُ فلا تظلموا فيهنّ انفسكم وقاتلوا المشركين كافّةً كما يقاتلونكم كافّةً واعلموا أنّ الله مع المتّقين انّما النسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الّذين كفروا يحلونه عامًا ويحرّمونه عامًا ليواطئوا عدّة ما حرّمَ اللهُ فيُحلّوا ما حرّم اللهُ زُيّنَ لهم سوء اعمالهم والله لا يَهدي القومَ الكافرين"

وقد قال كبار المفسرين في تفسير هذه الآيات الشريفة ما يؤيد ما قلناهُ قال الفخر الرازي في التفسير الكبير "والسنة القمريّة اقل من السنة الشمسيّة بمقدار معلوم وبسبب ذلك النقصان تنتقل الشهور القمريّة من فصل الى فصل فيكون الحج واقعًا في الشتاء مرةً وفي الصيف اخرى وكان يشق الامر عليهم بهذا السبب وايضًا اذا حضروا الحج حضروا للتجارة فربّما كان ذلك الوقت غير موافق لحضور التجارات من الاطراف وكان يخل اسباب تجارتهم بهذا السبب فلهذا اقدموا على عمل الكبيسة على ما هو معلوم"

ثم قال مستنبطًا من الآية امرًا دقيقًا "واعلم ان السنة الشمسيّة لما كانت زائدة على السنة القمريّة جمعوا تلك الزيادة فاذا بلغ مقدارها الى شهر جعلوا تلك السنة ثلاثة عشر شهرًا فانكر الله تعالى ذلك عليهم وقال ان حكم الله ان تكون السنة لا اقل ولا ازيد"

"وخطب النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة فحمد الله واثنى عليه وامر الناس بما شاء ان يأمر ثم قال الا ان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يومَ خلق السموات والارض منها اربعة حرم ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذي بين جمادى وشعبان"

ولا شك ايضًا في ان هذا يدل دلالة صريحة على ما قلناهُ

اما ما ذهب اليه المسيو دوساسي في الموضوع فهو مذهب غريب وهو ان اهل المدينة كانوا يستعملون السنة القمريّة الشمسيّة وكذلك قبائل اليمن اما اهل مكة وقبائل

كثيرة اخرى فلم يكن حسابهم سوى الحساب القمري المحض وكأنهُ نقل عن المقريزي نصًا يؤيد بهِ مزعمهُ . اقول هنا محكّ الفكر ومجسة النبض لانّا اذا اجلنا الفكر في هذا الكلام وتنورناهُ بلحظة صادقة تبين لنا فسادهُ من اول نظرة اذ يلزم من تسليمهِ ان الاشهر الحرم تقع في ازمنة مختلفة بالنسبة لاهل المدينة واهل مكة وبالنسبة لبعض القبائل والبعض الآخر ومعلوم ما كان بين العرب من المنافسات والثارات فيأتي زمن تكون فيهِ اهل جهة طعمة لاهل جهة اخرى اذ يكون القتال عليها حرامًا بينما هو حلّ لسواها واجمع المؤرخون ايضًا على ان الموسم وهو زمن الحج كان في وقت واحد لكافة العرب وكذلك عكاظ الذي كانوا يقيمونهُ في القعدة

اما المقريزي فانهُ بعد ان ذكر ان الجاهليَّة عمومًا كانت تكبس كل ٢٤ سنة بتسعة اشهر قال ان اهل المدينة كانت تكبس شهرًا في كل ٩٧٥ يومًا اي في كل ٣٢ شهرًا وهذا غلط وتحريف اتبعهُ المسيو دوساسي فركب خلاف الصواب وحاد عن الطريق وذلك ان المسيو دوساسي لم يطلع على كتاب الآثار للبيروني لانهُ كتاب عزيز لا يكاد يوجد الاّ في الكتبخانات القديمة فنقل عبارة المقريزي بنصها ولم يرجعها الى اصولها والواقع ان المقريزي نقل عبارة البيروني بالحرف الاّ انهُ سها في طريقة كبس الثلاث وثلاثين سنة بشهر فانها في البيروني منسوبة لاهل الهند لا لاهل المدينة ويثبت ذلك ما قالهُ المقريزي بعد هذا من انهم يسمون السنة الكبيسة (دِماسة) وهي كلمة لا معناة لها في لغتنا العربيَّة وانما هي كلمة هنديَّة تنطق في السنسكريت هكذا (دثيمازا) اعني ذات الشهرين وهو لقب لبق على السنة الكبيسة التي يكون فيها شهران باسم واحد كسنة اليهود الكبيسة التي يأتي فيها بعد شهر اذار اذار آخر واذا تقرر ذلك علمت ان ما قالهُ المسيو دوساسي واطال فيهِ في حيد عن الحقيقة ومعزل عن الصواب (ستأتي البقيَّة)

ان الذين يذهبون الى جهات القطب الشمالي يرون ان لون بشرتهم يصير اصفر ضاربًا الى الخضرة بعد مضي ليل تلك الاصقاع الطويل وقد اختُلف في سبب ذلك فظنَّ بعضهم انهُ حادث عن آفة في البصر فيرى الانسان جلدهُ وجلد رفاقهِ اصفر لتعوُّد عينيهِ على الظلمة الطويلة وقال غيرهم بل هو حادث من تغيُّر في الدم او الجلد وقد فُصِل الخلاف الآن بان احد المهندسين من روَّاد القطب الشمالي تحجَّب شهرًا كاملاً بعد ان اشرقت الشمس فزاد اصفرار بدنهِ وثبت من ذلك ان اللون حقيقي في الجلد من انحجاب نور الشمس لاعرضي في العين